# العقلانية الناقدة في فلسفة وايتهيد بين العلم والدين

# Critical rationalism in Whitehead's philosophy between science and religion
# Le rationalisme critique dans la philosophie de Whitehead entre science et religion

فاضل عائشة[1] *، بوقرن عبد الله[2]

تاريخ الإرسال: 2021/03/01 تاريخ القبول: 2021/05/18 تاريخ النشر: 2022/06/01

**ملخص:**

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقصي فاعلية العقل الناقد، حسب وايتهيد، كمشروع متصل بغرض إحداث إصلاح للمنظومة الثقافية الغربية، دونما إقصاء الجانب الديني وعزله.متجاوزا بذلك مركزية التعقيد والتصلب في الفكر الغربي الحديث والمعاصر. تقدم هذه الدراسة كجسر رابط بين أحاديات الأبعاد المكوّنة للفكر الابستمولوجي ذو الغرض الإصلاحي لمقومات النشاط العقلي. إذ يتم ترميم الشرخ الذي أحدثته العقلانية الحديثة بين مسارين لا يتقاطعا لكن يستوجب استحضار توازي كل منهما: العلم والدين.

على هذا الأساس يتحول المنهج المتبع بالتحليل والتطور النقدي العقلاني.ستتحقق النتائج المتوصل بها إلى تفعيل النقد في فهم المسائل العلمية بمعزلة عن التدخل الديني، وبهذا يتحول المسار التاريخي لاستعادة توازنه في تحديد وحدات البنية البشرية المتوازنة.

**الكلمات المفتاحية:** العقلانية؛ العلم؛ الدين؛ النقد.

**Abstract :**

This paper aims to investigate the effectiveness of the critical mind, according to Whitehead, as a related project with the aim of bringing about a reform of the Western cultural system, without excluding and isolating the religious aspect, bypassing the centrality of complexity and rigidity in modern and contemporary Western thought. This study is presented as a bridge between the one-dimensional constituents of epistemological thought with a reformative purpose of the constituents of mental activity. The rupture created by modern rationalism between two paths that do not intersect, but needs to be brought in parallel to each of them: science and religion.

The approach followed by rational critical analysis and development will be transformed. The results obtained will be achieved by activating criticism in understanding scientific issues in isolation from religious interference, and in this way the historical path will be transformed to restore its equilibrium in determining the balanced units of the human structure.

**Keywords**: Rationality; Science; Religion; criticism.

**Résumé :**

Cet article vise à étudier l'efficacité de l'esprit critique, selon Whitehead, en tant que projet connexe dans le but de provoquer une réforme du système culturel occidental, sans exclure et isoler l'aspect religieux, en contournant la centralité de la complexité et de la rigidité dans pensée occidentale

*المؤلف المراسل

[1] Fadel Aicha, PhD student in the Department of Philosophy, University of Constantine 2, Affiliation Laboratory: Human Sciences, Country: Algeria, Email: aicha.fadel@univ-constantine2.dz.

[2] Bouguern Abdellah, PhD in the Department of Philosophy, University of Constantine 2, Affiliation Laboratory: Human Sciences, Country: Algeria, Email: abdellah.bouguern@univ-constantine2.dz

moderne et contemporaine. Cette étude est présentée comme un pont entre les constituants unidimensionnels de la pensée épistémologique dans un but réformateur des constituants de l'activité mentale. La rupture créée par le rationalisme moderne entre deux voies qui ne se croisent pas, mais qui doit être mise en parallèle avec chacune d'elles: la science et la religion.

L'approche suivie par l'analyse critique rationnelle et le développement sera transformée. Les résultats obtenus seront atteints en activant la critique dans la compréhension des questions scientifiques isolées de l'interférence religieuse, et de cette manière le chemin historique sera transformé pour restaurer son équilibre dans la détermination des unités équilibrées de la structure humaine.

**Mots clés** : Rationalité; Science; Religion; critique.

**مقدمة**

تتجه الكثير من الكتابات إلى تبني النقد في الفكر الغربي، والتي يعرضها أصحابها كمشاريع تقويمية للوقائع المعروضة، بحيث تستمد هذه الآلية خصائص التفلسف والتصورات الإبستيمولوجية التي تنظر للعالم بصياغة مستجدة من قلب الأزمات، ولعل أبرز المشاريع وإن تم تغييبه أمام كثافة الدراسات المعاصرة نجد: فاعلية النقد في فلسفة وايتهيد التي تؤطر للترتيب العلمي والعقائدي كسمة أصيلة منتزعة في الساحة الغربية.

بيد أن الدراسات المقاربة للتفصيل الفكري في فترة التي عاشها وايتهبد لم تؤسس لمقاربات إبستيمولوجية من حيث العقل العلمي والعقل الديني، وليس في هذا مزايدة للقول من حيث الإطراء ولا كتوجه أيديولوجي محكم، لكن قيمة التصور تتعدى النقد نحو التقويم لعرض فاعليات الاتجاه العقلاني في الفكر الغربي وكشف أسباب القطيعة، عن طريق ضبط المفاهيم وصولا لعرض إشكالية التطور الحيوي للعقل الناقد: هل يمكن القول بالعقلانية العالمية أم أنها مجرد تصور قومي؟ ولتدقيق أكثر أين تبرز الأهمية الإبستيمولوجية للنقد وما هي أهدافه ، وهل حقق التصور النقدي في فلسفة وايتهيد نتائج عمليّة؟

*أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى كشف مركزيات العلم الحديث وصولا إلى فاعلية النقد التي تسمح بتحطيم الجمود الجاحد للبعد الروحاني الذي يهيئ للعقل التربة الخصبة لحركة العلم وفاعلية حيوية لطرح أبعاد واسعة للسؤال العقلي بما يحد أمراض العلم.

الإفصاح عن المسكوت عنه –الدين– وتسليط الضوء على أزمة أحادية العلم وهيمنة مقولاته التي أبدت البعد التعقيدي في كل من الخطاب العلمي والمعرفي، والذي ساهم في إدانة الفلسفة.

## 1.العلم والدين ضوابط لمفهوم العقل:

لعل التحديث الرئيسي بين العقل الغربي العام في الفكر الحداثي والعقل المتطور الخاص في فكر ألفريد وايتهيد يبرز الاختلاف الجوهري بين مسألة التواصل والقطيعة في مجالي العلم والدين، من حيث أن الدين يمثل السلطة والوسيلة التي يعبر فيها المؤمن نحو الخلاص بالنسبة للموروث العقائدي أي العقل الكلي، على هذا النحو تتحدد الخصائص و الأسس التي تبعث مصوغات الإيمان عند وايتهيد. أما العلم يتضح كفاعلية محركة للأدوات التي تحدد جوهر العقل عنده –أي وايتهيد،

فهو يتمثل كتفكير محسوس ذو بعد تطبيقي وهو ما يتجدد في ما يعرف بالتاريخ، ذلك أن النص العقائدي يتغيّر بتغيّر الحضارة، عن طريق فاعلية التطور التي تتبلور ضمن تداخل قومي للهوية الجماعية، وهذا البعث المتجدد يستلزم المخاطرة بتوجيه الغاية البنائية للوعي الذي يصاغ في شكل نظريات، ينبغي أن تنساق ككل في تيار إنساني يبني حضارة كونية متصلة بين الذات والآخر وصولا للإدراك المتعالي. "ومن واجب الدين المحضر أن يهدف إلى تمرين هذه العواطف التي تصدر بصورة طبيعية عن النقد العقلي المتحضر للبداهات الميثافيزيقية المؤثرة تأثيرا قويا في الفترات العظيمة من التاريخ البشري". (وايتهيد، 1960، صفحة 227، 228)

**أولاّ: خصوصية مفهوم العقل الغربي:**

تعد نظرة وايتهيد نحو الثورات الفكرية للغرب محكومة أساسا بتعدّي المناهج، وصولا لإعطائها صبغة البنية العضوية (كائن حي ينمو ويتطوّر)، ذلك أن العقل الغربي يتمظهر ضمن مسارات ثلاث كبرى هي:

أ-الإنتاج الصناعي الغربي؛ فمذ ظهور الصناعة إلى يومنا الحاضر كان العلم ولازال داعما لفاعلية تطويع المادة واستهلاك العالم وها ما خوّل له تراص النظريات بالتحديد الذي تنتجه، وهذا ما تحكم في تحوّل التاريخ وتطوره.

ب-تطابق الفكر مع الواقع وتحديده كبنية متناسقة، قابلة للتحليل والدراسة المنهجية المحكومة بالغائية، وعليه رفع الوصاية عن أي تناقض ملحق بين الفكرة والعالم

جـ-أزمة الدين ومحدوديته في الفكر الغربي، وبتعبير نتشه موت الإله المسيحي، خاصة بعد تسلط الكنيسة الذي أدى لبناء مرجعية تقوم على إقصاء الدين.

هذه التصورات الثلاثة هي نفسها الخيوط التي ستنسج شبكة الحماية للميثافيزيقا، وتعيدها للتحرير القطيعة وإعادة ترميم الشرخ الإبستيمولوجي في الفكر الغربي اللاحق، وفقا لهذا يؤسس غاسطون باشلار وجوب التقيد بالحدث وفتح إمكانيات العقل لاستيعاب المناهج والأنساق: وكان جان وال قد لاحظ مؤخرا أهمية المفهوم الذي اقترحه وايتهيد تحت اسم ما فوق الجوهر. وحين نتابع مصدر وايتهيد، نتوصل إلى تعريف جوهر مادي بتناسق الأصول العقلانية التي تفيد الوصل بين سماته، أكثر مما نعرّفه بالتماسك الداخلي الذي تقول به الواقعية. (باشلار، 1985، صفحة 83) وهذا ما أشار إليه في كتابه "فلسفة الرفض" كدراسة نقدية للتصور الغربي حول القطيعة. ولقد استفاد وايتهيد من هذه الفلسفة النقدية ليعبر عنها بمفهوم الدوغما من خلال ما أحدثه من مقاربة بين العقل اليوناني والعقل الغربي لأكد عليه أن المنطق لا يمثل الحقيقة لكن العبرة بالنتائج المتوصل إليها، فمقولات العقل هي مشتقات مقابلة لمصوغات الدين، والقضية في العلم والدين تشترك في خدمة الإنسان ونقله نحو التوحيد أي الله.

العقل الغربي هو عبارة عن مبادئ وقاعدة قدّمتها الثقافة الغربية منذ العهد الإيليني كأساس لاكتساب المعرفة، وتطورت كنظام معرفي مؤسس على مفاهيم خاصة حافظت على بنياتها في فترات تاريخية مفتوحة إلى حين ظهور الأزمات العلم. ونجد في نهاية كل عصر من العصور المتميزة بالفاعلية الشديدة وبين العوامل المؤدية إلى نهايتها نظرة كونية عميقة مقبولة ضمنا تفرض صفتها على منابع الفعالية المألوفة ولا يتم التعبير عن هذه النظرة الكونية إلا في جزء منها وتتحول تفاصيل

هذا التعبير إلى مسائل اختصاصية مشتقة منها تتميز بالتناقض العنيف و يعنى الجدل الذهني في العصر ما بالمسائل الأخيرة ذات التعميم. (وايتهيد، 1960، صفحة 38)

على هذا النحو تشكل الخطاب المعرفي على أسس عقلية حددت وظائف الأنظمة وشكلت لها مناهج لتثبيتها، وهذا ما أسس لأشكال متعددة في ازدواجية التأثير و التأثر بين علاقة الفرد والجماعة التي تألف بدورها الأرضية الخصبة صياغة البراديغم المعروض لحل الأزمة. ويحدد وايتهيد في ذلك صورا لنمو العلاقات من خلال المجالات التي تسمح بتحديث بعضها البعض دون التداخل والاختزال. وهذا من خلال "النظر للعالم على أنه نظام حيوي واحد يضم مجموعة أنظمة جزئية أو عناصر لها خصوصيتها ووظائفها: إن الكون يُظهر بعدين: فمن جهة يتفكك فيزيقيا، ومن جهة أخرى يتطور إلى أعلى روحيّا". (وايتهيد، كيف يتكوّن الدين، 2018، صفحة 117) إثر هذا يصبح العقل نظام شمولي كاشف لمسارات العالم، من خلال أنه:

أ-نظام معرفي منظم قابل للإدراك.

ب- نظام تقني معقد قابل للتحليل والبرهان.

ج-نظام حدسي قابل للعرفان والكشف.

من خلال هذه العاصر المؤسسة للعقل الغربي يحدد وايتهيد مقاصد العقل كالآتي:

-العقل آلية تنظيمية تتجاوز اللغة.

-العقل الكلي الذي يؤسس عليه مقولاته ككشف العلاقات بين الأصل والفرع.

-العقل المتجاوز للأطر السببية و العليّة المرفقة.

وإذا نحن عدنا إلى الجانب التاريخي للعقل الغربي نجد أنه يصبغه بصفة الثبات، وهذا التصور يردّه وايتهيد للأزمات التي حددت القوميات المتسلطة دون استهلاك طاقاتها تشييد فاعليات علمية لفتح مغامرات الفكر والاندفاع فيها. إضافة إلى هذا عائق الذات للتصور أمام مشكلة الأجيال التي تحد قابلية التقويض، إن التداعيات أو النتائج، تتكوّن من خلال إمكانياتها النظرية(أو الميثالية؟)، والتي يجري ترتيبها بحسب علائق بعضها ببعض. "إن ترتيب أو مرحلة السبب الحقيقي أو العلّة الحقيقية، يترتب على إبداع وحيوية واقعة حقيقة ما، والتي تمضي مع الواقعة نفسها إلى صيغة جديدة أو شكل جديد". (وايتهيد، كيف يتكوّن الدين، 2018، صفحة 111)

**ثانيا: فاعلية العلم والدين في توجيه مفهوم العقل:**

تعد رؤية وايتهيد إلى موضوع العلم بمختلف تجلياته قائمة على التعدي في المناهج، لأن العلم ظاهرة متعددة تتحكم فيها ضوابط مختلفة كالتاريخ، المجتمع، الخطاب أو اللغة، الأنثروبولوجية، الفردانية، وهذا التعدي يقابل الدين على الجانب الآخر، من حيث توليف حركة فلسفية تولّد مسارا نقديا قابلا للانعكاس العملي في تطويع المفهوم –نقصد مفهوم العقل، فحسب وايتهيد فإن العقل هو الذي يحدد المنهج ويسمح بتطبيقه عكس الفلسفات السابقة التي ترى أن المنهج هو الذي يحدد مواضيع العقل. حيث أن " الحقيقة قائمة في الفكر وحده، ولم تعد قائمة في الخبرة أيضا، بل في هذا التوافق الخلاق

الذي لا يكف عن التطور والتغيّر، والذي يغتني به الفكر لأنه يساير تعرّجات الخبرة وانحناءاتها، وتغتني به الخبرة لأنها تستسلم إلى المضمون الذهني المستنبط من إصغاء الفكر واستسلامه إلى حياة الخبرة ذاتها". (شرف، 2018، صفحة 12)

إذ يرى وايتهيد أن العقل أداة توجيه للوظائف ومنظم متحكم يتعدى العلم نحو الدين إذا ما كان الاشتقاق المصوّغ للدين ذو منبع متوافق مع مبادئ العقل، وعليه يرى وايتهيد وجوب تحديد المسار خارج التوجهات الضبابية، عن طريق :

-النقد التاريخي للعقلانية الحداثية، بداية من التأثير الذي أحدثه الكوجيتو الديكارتي.

-التصورات الأنثروبولوجية للفلسفة وتعيينها بالتحديد التطوري كمنهج ابستيمولوجي لتنظيم مسار العقل الغربي دون الوقوع في تناقضات ضبابية

- التحديث الفينومينولوجي للإدراك وعلاقته بتحرير العقل من الدوغما المسيطرة.

وهذه المنهجيات الكبرى التي يقيّد بها وايتهيد تحديد العقل تؤسس لوجوب الفصل بين التصورات النظرية والفاعليات التطبيقية، من حيث تحديد الأهمية للجانب العملي، وعلينا التسليم مسبقا إلى أن الفصل في الجانب التاريخي يمثل أزمة جدّ معقدة من حيث أن التاريخ يخفي نفسه، فالحدث المعطى يتزامن منذ تفجرّه بالجماعة والتجليات الأنثروبولوجية إضافة إلى أن التعيين يتنصل أحيانا في أحداث فيمونولوجية مؤجلة بسبب عوائق تاريخية ممحورة ضمن فضاء الجماعة. إننا نجد المجتمعات المتحضرة تكافح نوعين من أنواع القسر، الأول هو الحاجة الحاجات الأساسية الطبيعية كالطعام والدفء و المأوى. والثاني: هو الحاجة إلى تنسيق النشاط الاجتماعي. وينشأ هذا التنسيق جزئيا من العادة الفطرية التي يديمها المعنى الجيد المعقول. وكلما اتسعت رقعت الإقناع، توفر محيط تستطيع نشاطات عقلية أعلى ومشاعر أذكى أن تجد فيه انطلاقها ومتعتها. (وايتهيد، مغامرات الأفكار، 1960، صفحة 111، 112)

تاريخيا ننطلق من العقل الديكارتي الذي نجد أنه وعلى الرغم من عبقريته قد ثبط الانفتاح المعهود في التراث اليوناني؛ من خلال أنه تم اختزاله ضمن الإغو، وهذه الفاعلية الغير مفصّلة تستند إلى المعطى الحدسي إضافة إلى الزخم العاطفي الذي يدرجه الاعتقاد في فتح مسارات الوعي بإدراج الضمير الذي يقابل الأنا ego وهذا ما سيدرجه كانط بطريقة يقلب فيها الدلالة التي يتطلع لها الإدراك كحقيقة مراد تحصيلها ضمن مشروع الوجود القادم. على هذا النحو يتصل العقل بالضمير الذي يحقق إرادة الله في النفس وهذا التصور يمثل حجزا لأدوات العقل التي تحدد مشروعية حرياتها، وهذا ما يصنع الدين الذاتي (الإيمان بمبادئ العقل التي تشكل الدين خارج الصيغ، من حيث أنها تتحرر من أي تقييد)، على غرار هذا التصور يضع وايتهيد مسار العقل كأداة متحكمة في فاعلية التسليم بمبادئ العلم التي تنحت الحدث الديني وتحدد مصوغاته كضوابط تعبر من الجانب الفيزيقي الذي يمثل مستودعا للإشارات الباطنية للتطور، الذي يصوغ في الإنسان إمكانيات الإبداع. فالإدراك لا يقدّم في شكل ظواهر مادية أو كائنات حية بمفاهيم العقل العلمي، بل يتجلى في تأملات شاعرية تحرك الحدس الباطني للدهشة التي تؤسس الفاعلية المنهجية للاستنباط كنتيجة للتحليلات المستوردة من مخزون العقل العلمي. إن كل حدث حقيقي يصنع إبداعا صادرا عنه، وفي رؤية مضاعفة فإنه يصنع طبيعة واضحة. فمن جهة يعمل باعتباره واقعا يتكون من علاقته المعقدة بالعالم، ويكون تارة خيرا وتارة شرا، يصبح علة للإبداع الذي تترتب عليه نتائج جديدة تمتزج

وتكون دفعا حرّا.ومن ناحية ثانية تكون العاقبة المثالية في طبيعة الله متحولة ومضافة مثلما هي في رؤيته. (وايتهيد، كيف يتكوّن الدين، 2018، صفحة 115، 116)

على هذا النحو ينبغي توجيه العقل في تحديد المصوغات الإيمانية للاعتماد على المادة التي يؤسسها العلم والتي تكون مفاهيم عقلية مستخرجة ذات سند منطقي مقبول وصحيح يكون أعدل قسمة بين الناس –بتعبير ديكارت– يمكن من خلاله فهم حالة التديّن وحالة المستنير، وهذه الصلاحية هي التي تكشف الفهم الصحيح للفيمونولوجية الدينية التي تتشكل داخل الذات العارفة، كظاهرة موضوعية ذات بعد منتج للتاريخ المنظم، كما يفتح مجال الانتقال من المقدّس الضبابي إلى تحديد الأحكام الإنسانية التي تتجاوز الحجاب الفاصل بين الازدواجيات اللغوية. ما يشجع العملية على التقدم، هي فاعلية القطب الذهني التي توفر الموضوع المتصور ليتم دمجه بالواقع...، وهكذا تظهر الفرديات الباقية، بثروتها من الدلالة العاطفية، في المقدمة. (وايتهيد، مغامرات الأفكار، 1960، صفحة 337)

على هذا النحو يؤسس وايتهيد للعقل الديني، كمشروع يسمح ببناء التعاليم والإرشاد الذي يقول لنتائج محسوسة تؤسس للحضارة الثابتة والكونية، وهذا ما يقدّمه في تحديات تتمثل في:

–العقل أداة تنظيمية لا تمثل الحقيقة بل هي أشبه بالتابع أمام مؤسس النظام الكوني أي الله.

–الحقيقة ليست بالمفهوم الفردي بل هي حقائق تم اختزالها ضمن أدوات العقل للتقبّل النفسي للوجود، كقاعدة ثابتة على اعتبار أن العقل يخشى الفراغ.

–الحقائق ما تطابق فيها التقديم مع النتائج العملية والتطبيقية عن طريق الخبرة والتحرر.

– كما يمكن تأسيس أنساق علمية يمكن أيضا فتح مجال البحث لبناء أنساق دينية تطبيقية يمكن إخضاعها لمناهج تعليمية بغرض تحقيق إمكانية البناء المعرفي المتواصل الذي يقبل التطوّر.

وهذه الاعتبارات بحسب وايتهيد تمثل الشريعة العقلية التي ينبغي أن تسود العالم للوصول للسلام، وبالنظر للعلم من الجانب الآخر يتشكل مفهوم العقل كفاعلية التي تم استحواذها كمركزية كلاسيكية عرفت بالعقلانية الغربية التي تم دعمها تاريخيا من خلال المسيحية المزيفة.

التاريخ الغربي نظر دائما للعقل بصورة المتعالي الذي تقف فاعليته سواءً العلمية أو الدينية أمام سلطة الكنيسة، وهذا ما أدى إلى تعطيل تطلّعاته الاستكشافية، ولقد برزت إذ ذاك نزعات تحررية نادت بتحرير العقل وتأليهه، لكننا سنهتم أكثر بالتجليات العقلانية في فكر وايتهيد بشكل أكثر تدقيقا من حيث أنه عالج تاريخ العقلانية الغربية بأسلوب النقد دون إقصاء أي تصور أو إلغاءه، من حيث:

–رفض مركزية العقل لأجل العقل، كأولية فوق كل شيء.

–البرهان العقلي هو برهان لغاية ولا يعني رده للشمولية .

–العقل يقابل الإيمان ولا يلغيه.

لأجل هذا يصب العقل العلمي والعقل الديني في فكر وايتهيد ضمن صورة نشاط موحد يهدف لغاية مشتركة هي الوصول للحقيقة الأولى و هي الله، داخل دائرة حيوية تتصل أجزائها ببعض وتستمر، من حيث أن التسليم بالاختلاف في

الجزئيات والعناصر ضروري كإستراتيجية تسمح بنمو الوعي واستنطاقه من خلال الإبداع ، فالمسلم به في فلسفته أن العقل أصله إلهي و يمكن تدعيمه بالبحث والمغامرات الفكرية. من هذا التصور يبرز التحديد الإبستيمي للدين الذي يحمل على عاتقه مسار المنافسة والتجاوز لما هو سائد من خلال فتح آفاق التجديد في الفكر وتطويره خاصة منه الجانب الأخلاقي الذي يمثل المضلة الجامعة لأبناء الجنس البشري: إن الدين العقلاني هو الدين الذي تنتظم عقائده وشعائره، والتي جرت إعادة ترتيبها، بهدف أن تتحول إلى عنصر أساس في نظام الحياة، وهو نظام حياة يتمتع بالفكر المستنير، و بالتركيز على السلوك من أجل غاية عليا، تقتضي مصيرا أخلاقيا، وتظل متناسقة العناصر. (وايتهيد، كيف يتكوّن الدين، 2018، صفحة 30)

## 2.إمكانية إبستمية الفكر الديني عند وايتهيد:

ونعني بها تحديث البنية التكاملية للعقل المشترك من حيث النظر في النظام الفكري الغربي خاصة بعد فشل مشروع الحداثة، مع تحديد تصور رجعي خاضع لآلية النقد حول الفكر وعلاقته بالفلسفة، لتجاوز أسطورة الأصل وصلا لأسطورة الإنسان الطبيعي؛ وأرجح عدم تسميتها بفرضية، بل تحديدها بمفهوم الأسطورة بغرض قصدي يفهم منه محاولة لاقتطاع التصور الديني للمحور البشري كإيحاء لإعادة تشكيل الجماعة. وبالنسبة لوايتهيد ففلسفته لم تتجه لغاية دحض بقدر ما كانت تهدف لتجاوز القطيعة الميثافيزيقة لغرض ترميم المعتقد في البنية الغربية، إثر تعدّي القطيعة لتغييب المعنى الوجودي للإنسان خاصة أمام ما حققته الرفاهية العلمية للإنسان.

وهذا المسار الذي يريد وايتهيد شقه، يقوم على رفض الأسبقية المثالية في الفكر؛ بحيث يتحوّل الله لنتيجة مستحقة للساعي نحوها، وغير ذلك لا يمكن إلا التعبير عنه إلا بالدين التاريخي، فتغيير الإرادة والعقل يجعل الإنسان مفرغا من الحدس العاطفي الذي يتكشف في الحنين للأصل، كما يعيق النمو بالحجز ضمن النموذج الروحي للمستنير وتقديسه، وهذا ما يحيل الزمن للتوقف ويخضعه للإعادة والتكرار، كدوامة مفرغة، بحيث أن التاريخ عند وايتهيد لا يتكرر لكنه يبعث مع كل حدث مستجد. إن النظر في تاريخ الدين يثبت أن **التطور** باتجاه الدين المعقلن، إنما يحصل نتيجة ظهور وعي عالميّ أو وعي بالعالم. فالمراحل المتأخرة لديانات الجماعات يسودها رد الفعل الواعي للطبيعة الإنسانية في مجال تنظيم المجتمع الذي تجد نفسها فيه...، فالدين العقلاني هو عبارة عن رد فعل واعي للإنسان على مجريات الكون والمحيط الذي يجد نفسه فيه. (وايتهيد، كيف يتكوّن الدين، 2018، صفحة 38)

إن إمكانية دراسة المسار الديني عن طريق ابستيمولوجية خاصة تتكشف من خلال النظر للخطاب الديني بين التوجهين: العملي للبحث والتقصي المعرفي، وكذا التوجه الأخلاقي لتهذيب السلوك وتحديد المنهج التلقيني في التربية. خاصة أن الفكر الإنساني قابل للامتداد، وهذا ما يؤسس لتغييب الصيرورة التاريخية القائمة على التصور الأسطوري، بل التقصي بالتاريخ الرجعي لبناء مقاصد الوعي وتثبيت أصولها. وحسب وايتهيد فإن الرهان الأكبر يكمن في المنطق الجدلي الذي تعوّدت عليه الإنسانية من خلال صراع الأجيال المغلق وبدل منه ينبغي فتح المجال بين الفلسفة والعلم لإستعاب مجريات لحياة: يقوم العلم و الفلسفة بعضهما بنقد بعض وبتقديم بعضها مادة الخيال لبعض. فعلى النظام الفلسفي أن يقدم شرحا للحقيقة الملموسة و يقوم العلم بالتجريد من ذلك الشرح. (وايتهيد، مغامرات الأفكار، 1960، صفحة 208)

### 3.حيوية التطور العقلي في فكر وايتهيد:

يعد المعطى الحيوي مسارا خاصا في فكر وايتهيد من حيث أنه ينظر للعقل كأساس قابل لتطوير المعارف الفكرية بشكل تنظيمي على أسس نسقية غير محدودة، وهذه الفاعلية تقيّد بشروط موضوعية لتحديد الغايات العامة لأدوات البناء المعرفي، عن طريق الاستنباط والهدف منه هو فهم أولي للنظريات التي تؤسس التركيبات المستجدة عن طريق التجاوز المستمر.

على هذا النحو يتجه العقل للنضج من خلال تنقيته من شوائب الدوغما، ولا يتم هذا إلا بتطويع المناهج، وحسب وايتهيد فالمناهج التعليمية لا تقتصر فقط على العلم بل تتعداه نحو التعاليم الدينية المستنبطة من تبني موقف الاختلاف وهذا لا يمثل التعدد الكلاسيكي الذي تجنبته العقائد بل الغرض منه هو حل المشكلات كمحاولات مفتوحة تخلق جو المنافسة الإيجابية.

لقد حقق الانتصار العقلي للفرد الغربي تكملة أساسية في حلقة البناء الحضاري، غير أنه تغذى دوما على الأحكام خاصة ما تعلّق بالدين، وهذا ما فتح الحوار المغلق بين العلماء متصديا بذلك للخطاب الديني، وعليه تعذر النقد الإبستيمولوجي وأجّل لأعقاب القرن التاسع عشر خاصة مع أزمة الهندسة.

والواقع الجلي فإن قطع العقل الديني من التصور الواقعي للحياة الغربية أحال التركيز للعلم وصب كل جهوده في المقارنة دون محاولة النظر في المجال العقائدي، لذلك تجددت القطيعة في عصر ما بعد الحداثة في صورة القطيعة الدينية التي قابلتها صور النفور الحاد منه في شكل التسليم بالإلحاد المنظّر. وهذا الأخير شرّع للحريات المفتوحة ومسؤولية تقرير المصير ضمن حيّز الأنا في العالم، وعليه نما الفرد الغربي كخلية سرطان في البنية الحيوية للمجتمع الغربي مما أفقده قيمة الحياة الغايات الوجودية له، على هذا النحو يتحوّل النقد الذاتي في الفلسفات المتصلة بنقد العقل عند كانط إلى نقد العقلنة عند وايتهيد، وفي هذا توسيع العقلانية من الأطر الذاتية نحو الأطر الإنسانية التي تنفصل من الأنانية.

إن التطور العقلي الملحق بالمسار الغربي قد أنتج على الصعيد المغاير تحويله لنظام مغلق غير قابل للتحديث عن طريق سوء اعتماده –أي العقل–، لذلك يرى وايتهيد أن العقل في حاجة للخروج بصورة مستحدثة تقارب التطور العلمي للعصر عن طريق إرفاقه بمفهوم الخبرة المستعار من فلسفة جون ديوي، لغاية التحرر من الجمود الملحق به لعصور.

بالنسبة للنقد الذي يرفقه وايتهيد بالقطيعة فإنه يرى أن تحقق القطيعة نتيجة ضرورية للعقلية الغربية التي انتظرت الكثير دون السعي لتجاوز العراقيل الدوغمائية المتمثل في المغالاة بالسببية وتطبيقها في مختلف المجالات، ذلك أن المنظومة المعرفية اتسمت بالاستقرار عن طريق رفض التطور، وهذا الانسياب اللاشعوري كان نتيجة حتمية لتعيين الذات ضمن الثقافة، الذي يحتّم التحجر الزمني وعدم التوجه نحو القادم والسعي للنمو. لذلك يرى وايتهيد أن الثقافة ذات بنية ضيقة تشكلت إثر الزخم التاريخي الذي خلّفته الأساطير اليونانية التي لم تؤدي دورها العملي لإنقاذ الإنسان من الكثير من المشكلات المستعصية التي واجهته، لذلك فما يمكننا تسميته بمرض الثقافة ينبغي عزله عن العقل الذي قد يتسبب في تحطمه، وهذا ما يخلق المشاريع الهشة التي تؤجّل لزمن الأبطال.

### 4.مشروع الدين العقلاني عند وايتهيد:

تعد عقلنة الدين رؤية مستحدثة في فكر وايتهيد، تقوم على النظر في موضوع العقل ومقاربته مع الضرورة الدينية، أي أنه نوع من البرهان الغير صريح بين ازدواجية العقل الفيزيقي والعقل الميثافيزيقي، حيث أن الأوّل مؤسس على البنية العلمية في حين أن الثاني مؤسس على الحدس، وحسبه فإنه لا يمكن اختزال الوجهين في مفهوم العقل، وهذا ما يفتح نوعا من الإرساء الصوفي للمونولوج المهتم بموضوع خارج البنية الذي هو الله، فحسب وايتهيد الله خار الزمن وخارج العقل لكن البحث والتقصي هو الذي يسهب في إدراكه كحدس باطني، وهذه العلاقة الشخصية تتعدى المناهج لتصبح نتائج.

إن المقاربة التي يمكن توجيهها في تطور العقل عند وايتهيد تتفق إلى حد بعيد بنظرة ابن طفيل لتطور العقل عند شخصية حي ابن يقضان التي يمثها كعقل فطري يتجه للنتائج عن طريق آلية التجريب والحدس، فالفردانية هي التي تسمح بنمو مشروع عقلنة الدين، أما الصفات التي تحدده عن طريق النقد ما هي إلا انعكاسات لموضات الفكر المتوصل إليها عن طريق الخبرة، فالذات وحدها من تشّع القطيعة بين الأحداث المتناولة، وليست حركات فكرية دوغمائية.

إن النظر لما يعرف بالبنيات الوحشية في مقابل البنيات الحضارية، هي حركات اعتباطية ألزمتها الفلسفات النقدية، التي تنبأت بالنتائج دون السماح لأفرادها بالبحث والتقصي، فلو نظرنا إلى البوذية فإننا نجد أنها استمرت من خلال تعاليم بدائية ثابتة، دون الخوف من التكرار، على هذا النحو فإن عامل الخوف يمثل المثبط الأولي لتحرير الدين الفردي ولا نقصد به الدين الضميري الذي نادى به كانط، لكن الدين الفردي هو الذي يسلم بالمصوغات العقائدية انطلاقا من التوافق الملحق بالخبرة التي تؤسسها المرجعية العقلية للمبادئ المتحكمة في فهم العالم.

على هذا النحو تصبح الثورات العلمية سندا لإعادة النظر في الفكر الإنساني العام، وهذا ما يسمح بنقد التاريخ والسماح له بالتطوّر من جهة أخرى، فالحدث دائما ما يستدعي بناء نمط ويفتح المجال في فلسفة المناهج بالتجدد، وعليه فإن العقل لا ينتج بقدر ما يبعث على التجدد، أي أنه يحدد لأنساق وينظمها دون أن يتمثل في شكل مركزية كلية مناهضة لمركزية الله.

ويتأسس هذا المشروع على تحديد الآفاق المراد تحصيلها من خلال تجاوز المغالطات المتوارث عن طريق الجمع بين مبادئ العقل والنظر في مصوّغات الإيمان بما يقتضيه المنطق العلمي، كنوع من تدعيم المسلمات الدينية بالحقائق العملية، دون اختزال أحدهما في الآخر، ذلك أن الغرض الذي ترجوه فلسفة وايتهيد تجاوز المسائلة بين الوظائف نحو بناء جسر غائي غرضه الحقيقة العملية." لن يستعيد الدين قوته القديمة حتى يتمكن من مواجهة التغيير بنفس الروح التي يستعيد بها العلم. قد تكون مبادئه أبدية، لكن التعبير عن هذه المبادئ يتطلب تنمية مستمرة ".(Whitehead, 1929, p. 234)

لذلك ستتحوّل المفاهيم الدينية عند وايتهيد: الله، الملائكة، الخير والشر، الآخرة، من مشكلات اللغة وسؤال الكينونة إلى غايات يتم تقديرها بالنظر إلى الأنظمة والدور الذي تحققه عن طريق إلحاقها بالوعي، وهذا ما يقود لبناء تقنيات تأليف بين الأفعال والتعبير أي النقل والتعريف بها، إذ يقدم وايتهيد الزمان إلى زمان وجودي واللازمان، على هذا النحو يتم تحرك الوعي البشري نحو التحقق الروحي في العالم .

## 5.أبعاد الازدواجية النقدية بين العلم والدين في الفكر الغربي المعاصر:

يعتبر التحليل الغربي المعاصر سلاحا ذو حدين حول إثبات الوضعيات الإيديولوجية من خلال فاعلية الصراع لتجسيد الحقيقة المتبناة، وآخر مؤجل في ظل التعايش السلمي. إثر هذا الاعتقاد ستتداول هذه المنظومة اللاحقة من خلال التعصب الفكري سواء الاجتماعي أو القومي المؤسس على سياق خاص لتعيين المرجعية المراد تحديثها، خاصة بما فتحته الازدواجية المتقابلة بين الوحدة والقومية؛ اللتان تحققان قوتين منتزعتين من الفكرة المرتبط الوضع الجماعي.

والسياق نفسه ما تفرضه الوقائع الراهنة بين التحولات القائمة ضمن العلاقات البنائية بين الفكر والوجود، وهذه العلاقات تنتهي بإسهامات بارزة على الصعيد الإبستيمولوجي من حيث تحديد منظومات ثورية تؤسس لمسارات سياسية مموهة، وعلى الرغم من أن موضوع السياسة يبدو في فلسفة وايتهيد أنه نص مسكوت عنه إلا أنه يطفو فرضا وعلنية أمام علاقات التطابق بين الأصعدة المشتركة بين الذوات أو على الصعيد الجانبي المتمثل في تطابق المعرفة المتاحة مع المجتمع في ظل أزمة العولمة، التي تقدم المركزيات الأيديولوجية كمعيار إلزامي وإن بدا غير ذلك. إن مسألة الازدواجية تعدت الحور اللغوي نحو التأزم التطبيقي، وهذا ما يكشفه راهن الضمير الخلقي في مقابل الضمير المتدين. فالحروب؛ الأوبئة وتجويع القوميات لأغراض تتعدى خصائص القيمية التي تحكم كل من العلم والدين، تضفي سؤال العقل وتضعه في مقابل الوقائع بين التعوّد على تحديد الأطر الذاتية، وفقا للمنظور الأيديولجي بين التحديث و الرفض.

وهذه المفارقة التي تتزامن مع ظهور فلسفات تطبيقية كمشروع الإنسان العالمي، تخفي الكثير من الاتجاهات الخفية للهوية العقلية بين( قولنا بالعقل الإسلامي والعقل الغربي)، على هذا النحو يتمثل العقل ضمن خلفيات كبرى تحكم توجهه، إثر هذا يبدو أفق الفكر العقلاني ضبابيا إذا ما أتيحت له فرصة التعيين بين مشكلات الراهن التي تستنطقها الفاعليات اللاإنسانية والتي تبدو إلى حد بعيد لاعقلية، فأنّ للعقل أن يقبل بالممارسات التي تتمثلها الوقائع من قتل وتجويع ؟ وهل انقلاب العقل على التاريخ المؤجل مفروض أم أن التأزم يرتبط جذريا بالإنسان؟ يجب أن تكون هناك ثورة ثانية لقلب المصالح الخفية التي أنتجتها العقليات الأنانية دون المساس بالكشوفات والإجراءات العلمية التي مثلت حقيقة الإبداع والشاعريّة الإنسانية.

**خاتمة:**

لقد تصور وايتهيد علاقة اعتباطية بين فلسفة العلم وفاعليات الدين، عن طريق تجاوز العقل نحو الوعي الكلي خاصة مع صدمة الفرد الغربي، فالأزمات التي جرتها الكشوفات العلمية جعلت الإنسان يقتحم صيرورة الانفتاح عن طريق تجاوز المعارف التي تتسم بالجمود أمام علاقة المجتمع والفرد، وصولا تحديث النظرة نحو التاريخ وربطها بالبناء الإبستيمولوجي لتحديد الرقابة المعقولة أمام المناهج المعتمدة، ويبقى سؤال السياسة سؤالا متاحا لا يمكن إقصائه خاصة بعد دمج المعرفة بالعولمة، ونقلها لمصاف الشمولية.

من هنا تبرز أهمية مشروع نقد العقل الغربي في العصر الراهن كما اشتغل عليه وايتهيد منخرطا في ذلك باعتماد على قضايا تمس تاريخ الاحتجام الغربي لمفهوم الدين وسياقه العقلي. فهي محاولة مؤازرة اتهام الفلسفة بالعقم الراهن التي أدت لإزاحة القيمة عن طريق تبديد التصور الميثافيزيقي وده لساحة الأوهام.

وهكذا، يتم فهم الحدث ضمن السياق المشار إليه، مما يخلق التحجب الادراكي لتطور العقلاني مما يخلق الأزمات التي تتعرض الفلسفة والدين على اختلاف فاعليات الزمن. وعليه نستخلص الآتي:

-لايجب رد الدين لحل أزمة دين سابق كحالة تحمل زخم عاطفي مما يقيد التصورات العقلية بشبح الأحكام المتوارثة.

-العقل لا يتحقق ضمن الذات بل هو حركة تذاوت بين معطيات تسبح في امكانيات العالم والتحقق.

-المفارقة في جدلية التاريخ، أن من قاد العقل الغربي هو اللاهوت المتطرف مما خلق مأزقا حضاريا استدعى تقديم قربان —الأفراد-.

-التعدد لا يمس قيمة العقل بل هو منعطف ضمن سوء استعمال اللغة على حساب الدين والعلم.

-إن أدوات النقد تقدم الثقة المتبادلة بين العلم والدين من حيث احترام حدود الطرح والسياق المعتمد.

لقد حققت ما بعد الحداثة لوايتهيد شرخا زمنيا من حيث كشف اللبس القائم بين القيمة المتصلة بالحدث وخصائص الأنسجة الحيوية التي تستدعي التماسك بين التاريخ والتبصر في موضوعات الحياة، كشبكة متصلة بين الأصناف التي تتصل بأفكار الإنسانية. لذلك لا ينبغي تحديد حقيقة شمولية متربيعة على العرش في كل من الدين والعلم عن طريق تخشيب اللغة عقليا، وهذا ما يقود لتحطيم الدوغما وتقييد امتدادها، فالذات وإن شكلت سياجا للفردانية إلا أن التعصب قابع وسطها وهذا ما ينشأ مقاربات بين الابداع والتحرر الواعي لا النرجسي الضيق.

**قائمة المصادر والمراجع:**


- Whitehead, A. (1929). *Science and the modern world* (ed. first edition). London: Cambridge university press.
- ألفريد نورث وايتهيد. (2018). *كيف يتكوّن الدين* (الإصدار د.ط). (رضوان السيد، المترجمون) لبنان: جداول للنشر والتوزيع.
- ألفريد نورث وايتهيد. (1960). *مغامرات الأفكار* (الإصدار د.ط). (أنيس زكي حسن، المترجمون) بغداد: منشورات دار الحياة ومكتبة النهضة.
- شهيرة شرف. (2018). *منطق الضبابي والعلوم الانسانية والاجتماعية* (الإصدار ط1). لبنان: المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات.
- غاسطون باشلار. (1985). *فلسفة الرفض* (الإصدار ط 1). (خليل أحمد خليل، المترجمون) لبنان: دار الحداثة.